نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس السادس

عناصر المحاضرة:

❶لماذا فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول البعثة، وكم كانت مدته.

❷ فقه الحكمة من الدعوة السرية.

❸ فقه الدعوة الجهرية.

❹ موقف قريش من الجهر بالدعوة.

❺ أساليب قريش في قمع الدعوة.

كان صلى الله عليه وسلم مثالاً للأخلاق الفاضلة ، والقيم السامية ، وكيف لا ، وقد وصفه ربه بقوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (4) القلم وقال هو صلى الله عليه وسلم عن نفسه : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ » رواه البيهقي ، فلم يكن صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً ،ولا سخاباً في الأسواق ،ولا يجزي بالسيئة السيئة ،ولكن يعفو ويصفح ، وتقول أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها – في وصف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما في الصحيحين : (مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – لِنَفْسِهِ ، إِلاَّ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا) ، وكان صلى الله عليه وسلم ذا رَحمةٍ وشَفَقَةٍ وإحسانٍ ،يُواسي الفُقراءَ وَيَسْعى في قضاءِ حاجةِ الأرامِلِ والأيتامِ والمساكينِ ، والضُّعفاءِ ، وكان من أشدَّ النَّاسِ تَوَاضُعاً وعفواً وتسامحاً وحلماً ،فما أعظَمَهُ من نبيٍ وما أحلاها من صِفاتٍ ، عَسَانا أن نَتَجَمَّلَ ونتحلى بصفاته الكريمة؛ لنكونَ على هديِهِ – صلى الله عليه وسلم.

✉إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من وطئ الثرى، وأول من تُفتح له الفردوس الأعلى؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَا سَيِّدُ بَنِى آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ.

✉وكان فصيح اللسان واضح البيان، موجز العبارة موضح الإشارة، آتاه الله جوامع الكلم، وأعطاه بدائع الحِكَم؛ وفي سنن الترمذي : (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِى فِي وَجْهِهِ وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَى لَهُ إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ) ، إنه الحبيب المصطفى والرسول المجتبى الذي، بعثه الله جل علا؛ ليخرج الأمة من الوثنية والظلام إلى التوحيد والإسلام، وينقذ الناس من التناحر والتفرق والآثام، إلى العدل والمحبة والوئام.

✉فما أحوجنا في هذا الزمان للرجوع والتمسك بهذه الأخلاق في هذا الزمان الذي ابتعدت فيه الأمة عن دينها وعن سنة رسولها، فلنهذب أنفسنا، ولنطهر جوارحنا، ونربي أنفسنا وأبناءنا على هذه الأخلاق الاسلامية السامية، وهذا لا يتأتى إلا بدراسة سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم.

📄لماذا فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول البعثة، وكم كانت مدته؟

فتر [يعني: انقطع] الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين:

مرة في أول نزول الوحي، ثم نزلت بعده سورة المدثر، ومرة بعد نزول عدة سور من القرآن، ثم نزلت بعده سورة الضحى.

فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (ثُمَّ فَتَرَ عَنِّى الْوَحْىُ فَتْرَةً، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِى سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِى قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِى جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ، حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) إِلَى (فَاهْجُرْ). رواه البخاري (3238)، ومسلم (161).

📄قال النووي رحمه الله:" قوله (ثم تتابع الوحي) يعنى بعد فترته، فالصواب أن أول ما نزل (اقرأ) وأن أول ما نزل بعد فترة الوحي (يا أيها المدثر) انتهى.

وروى البخاري (4953) حديث عائشة في بدء الوحي وفيه إخبار النبي صلى الله عليه وسلم ورقة بما رأي، وقول ورقة له: " إِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا " قالت عائشة: " ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ ".

وهذه هي المرة الأولى.

وروى البخاري (4950)، ومسلم (1797) عن جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ -أَوْ ثَلاَثًا -، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ -أَوْ ثَلاَثَةٍ -فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى).

وهذه هي المرة الثانية.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:" الْفَتْرَة الْمَذْكُورَة فِي سَبَب نُزُول (وَالضُّحَى): غَيْر الْفَتْرَة الْمَذْكُورَة فِي اِبْتِدَاء الْوَحْي، فَإِنَّ تِلْكَ دَامَتْ أَيَّامًا، وَهَذِهِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ". انتهى من "فتح الباري" (710/8).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ رحمه الله:" ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فترةً مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى شقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَأَحْزَنَهُ، فَجَاءَهُ جبريلُ بِسُورَةِ الضُّحَى، يُقسم لَهُ رُّبه، وَهُوَ الَّذِي أَكْرَمَهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ، مَا ودَّعه وَمَا قَلاَه " انتهى من "سيرة ابن هشام" (1/ 225).

وقال ابن عاشور رحمه الله:" وَاحْتِبَاسُ الْوَحْيِ عَنِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَعَ مَرَّتَيْنِ:

أُولَاهُمَا: قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ أَوِ الْمُزَّمِّلِ، وَتِلْكَ الْفَتْرَةُ هِيَ الَّتِي خَشِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكُونَ قَدِ انْقَطَعَ عَنْهُ الْوَحْيُ، وَهِيَ الَّتِي رَأَى عَقِبَهَا جِبْرِيلَ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وَثَانِيَتُهُمَا: فَتْرَةٌ بَعْدَ نُزُولِ نَحْوٍ مِنْ ثَمَانِ سُوَرٍ، أَيِ السُّوَرِ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَ الْفَتْرَةِ الْأُولَى فَتَكُونُ بَعْدَ تَجَمُّعِ عَشْرِ سُوَرٍ " انتهى من "التحرير والتنوير" (30/ 396).

وقال الرازي رحمه الله:" وَاخْتَلَفُوا فِي قَدْرِ مُدَّةِ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ، فَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: اثْنَا عَشَرَ يَوْمًا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا " انتهى من "تفسير الرازي" (31/ 192).

⇦أما فترة الوحي الثانية فكانت ليلتين أو ثلاثا، كما تقدم في حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

قال ابن كثير رحمه الله:" نَزَلَتْ سُورَةُ وَالضُّحَى بَعْدَ فَتْرَةٍ أُخْرَى، كَانَتْ لَيَالِيَ يَسِيرَةً، كَمَا ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحَيْنِ " وَغَيْرِهِمَا " انتهى من "البداية والنهاية" (4/ 41)

وكانت الحكمة من فتور الوحي مدة: أن يذهب الروع الذي كان قد وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه لما نزل عليه جبريل عليه السلام أول مرة، وليحصل له التشوف إلى عودة الوحي والاشتياق إليه، ولتنزل السلوى على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله تعالى، فيزداد إيمانا وتثبيتا، وليبتلي الله الناس فيثبت المؤمنين ويضل الكافرين.

فقه الحكمة من الدعوة السرية:

كان ﷺ يجتمع بهؤلاء السابقين إلى الإسلام مستخفياً، فيذكّرهم بالله، ويرشدهم إلى دينهم سراً؛

لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية.

وفي هذه المرحلة كان ﷺ يلتقي بمن أسلم في دار (الأرقم بن أبي الأرقم)، عند جبل الصفا.

ولعل سبب اختيارها أن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، ولأنه من بني مخزوم حاملة لواء العداء لبني هاشم، لذا يستبعدون اللقاء في قلب دور الأعداء، ولأنه كان صغيراً عمره في حدود ستة عشر

عاماً، والأنظار تنصرف عادة إلى الكبار، ولأن داره قرب الصفا حيث تشتد الحركة، مما لا يلفت النظر إلى حركة خاصة فيه.

وكان من حكمة الله عزَّ وجلَّ أن ألهم رسوله ﷺ أن يقوم بالدعوة في البداية سراً، لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم عليه، ويثيرهم عليه، فيئدون الدعوة في مهدها.

ولكي يكون للدعوة أنصار وأعوان يحمونها إذا جهر بها رسول الله ﷺ، وظهر لها أعداء يحاولون القضاء عليها.

وكان مقتضى حبه ﷺ للدعوة، وحماسه لها، أن يدعو كل من يلاقيه في السوق أو عند الكعبة، أو غيرها، لكنه لم يتحدث إلا مع أفراد معدودين، مؤجلاً الدعوة العامة للوقت المناسب.

والدعوة الفردية هي أصل الدعوة وأساسها، وأكثر دعوة الرسول ﷺ كانت فردية، والدعوة الفردية لا تكلف شيئاً،لأنها تحصل في المنزل والطريق والسوق ووسائل المواصلات والمطارات ووسائل الاتصال وغيرها.

وهي أحسن طرق الدعوة ،لأنها تقوم على الاستفادة من اللقاءات والزيارات والاجتماعات، ويتحدث فيها فرد مع فرد، ويعرض عليه ما يريد بهدوء، مع إفساح المجال للأخذ والعطاء والحوار.

وسر سرية الدعوة في البداية ❁إرشاد الدعاة في كل مكان وزمان إلى الأخذ بالأسباب،

❁ وتقديم مصلحة حفظ النفس، على مصلحة الدين المرجوحة.

وكان ﷺ حين استخفائه وأصحابه بدار الأرقم، يأمرهم بالتزام الحيطة والحذر، والتخفي،وعدم الإعلان عن الإسلام إلى أن يقضي الله أمره.

فكانوا إذا أرادوا الصلاة خرجوا إلى الشعاب فاستخفوا فيها بصلاتهم عن أنظار المشركين.

وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء: ركعتين قبل طلوع الشمس، في وقت الفجر، وركعتين قبل الغروب في وقت العصركما قال سبحانه: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [غافر/٥٥].

وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ، وعلى أمته حولاً، كما قال سبحانه: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} [الإسراء/٧٩].

فقام ﷺ وأصحابه حولاً كاملاً حتى ورمت أقدامهم، عن سعد بن هشام أنه سأل عائشة رضي الله عنها عَنْ قِيَامِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ يَا أَيُّهَا الـمُزَّمِّلُ؟ قُلْتُ: بَلَى .قَالَتْ: فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ فَقَامَ نَبِيُّ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ الله خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ حَتَّى أَنْزَلَ الله فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ. أخرجه مسلم .

ثم نسخ الله وجوبه ليلة الإسراء بفرض الصلوات الخمس، وبقي حكم التهجد سنة مؤكدة.

ومرت ثلاث سنوات، والدعوة لم تزل سرية فردية، وقد تكونت خلال هذه الفترة جماعة من المؤمنين، تقوم على المحبة والأخوة والتعاون، وتبليغ الرسالة، ثم نزل الوحي يُكلف رسول الله ﷺ بمعالنة قومه بالدعوة، ومجابهة باطلهم، ومهاجمة أصنامهم جهاراً، كمال قال سبحانه: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (95) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (96) [الحجر/٩٤-٩٥].

فقه الدعوة الجهرية:

2-الدعوة الجهرية

أمر الله رسوله ﷺ أن يصدع بما جاء به من الحق، وأن ينادي الناس بأمره الذي أرسله الله به، وذلك بعد أن ظل مستخفيا بالدعوة ثلاث سنين.

وأول ما نزل من القرآن بهذا الشأن: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)} [الشعراء/٢١٤-٢١٦].

ثم أنزل الله قوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95)} [الحجر/٩٤-٩٥].

فبدأ ﷺ بتنفيذ أمر ربه، فكان أول شيء فعله أن دعا جميع ذويه وقرابته وعشيرته من بني هاشم، ونفر من بني عبد المطلب، فاجتمع أربعون رجلاً أو يزيدون، فأكرمهم رسول الله ﷺ وأطعمهم، ودعاهم إلى الله، وخوفهم من عقابه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لمّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا ، فَاجْتَمَعُوا ، فَعَمَّ ، وَخَصَّ ، فَقَالَ : «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ،غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا» متفق عليه.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ " وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الـمُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ». فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» قَالَ أَبولَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ: " تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" متفق عليه.

ثم جمع ﷺ قرابته وعشيرته مرة ثانية، وصنع لهم طعاماً، فأكلوا وشربوا، ثم خطبهم ﷺ، ودعاهم إلى الله عز وجل.

وبعد أن تأكد النبي ﷺ من تعهد عمه أبي طالب بحمايته، أخذ ﷺ يفكر في وسيلة جديدة يبلغ فيها قومه رسالة ربه، فصعد ﷺ جبل الصفا ذات يوم، ودعا قومه إلى الله عزوجل.

وفي بدء الرسول ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين، مع أنه رسول لجميع البشرية، توضيح وبيان لدرجات مسئوليات الداعي التي يجب أن تبدأ من الأهل والأقارب.

فالشخص مسئول عن أهله وزوجته وأولاده ووالديه وأعمامه وأقاربه، كما قال سبحانه: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء/٢١٤].

وفي المواجهة القوية من أبي لهب، وهذا العداء المعلن من أول لحظة من عم النبي ﷺ، أكبر دليل يوضح للناس أن هذه الدعوة ليست دعوة عشائرية، أو عصبية قبلية، بل هي دين ورسالة من الله تعالى إلى خلقه من الإنس والجن، كما قال سبحانه لرسوله ﷺ: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) [الأعراف/١٥٨].

وظل ﷺ يدعو كفار قريش إلى الإسلام، ويدعو لهم بالهداية، والله يحفظه ويكلؤه، ويطمئنه بحراسته وحمايته له من أعدائه والمستهزئين، كما قال سبحانه: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95)} [الحجر/٩٤-٩٥].

ولكمال معرفته ﷺ بالحق الذي أرسله الله به، وشدة رحمته لقومه، فإنه قد ضاق صدره بسبب أقوالهم المعاندة للدين، فأنزل الله له حَلَّ ذلك بقوله: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)} [الحجر/٩٧-٩٩].

موقف قريش من الجهر بالدعوة:

كانت قريش تظن أن دعوة محمد ﷺ كسائر الدعوات التي ظهرت في مكة، ثم لم تلبث أن انتهت، ولكن لما جهر رسول الله ﷺ بدعوته، وبدأ يتحدث عن الشرك وأهله، ويبين حقائق الأصنام، وأنها حجارة لا تنفع ولا تضر، حينذاك أدركت قريش أن هذه الدعوة ليست كالدعوات السابقة، وأنها بدأت تدخل كل منزل.

وقريش في البداية سالمت الرسول ﷺ، ولم تتعرض له، لكنه لما تحدث عن الإلهية والتوحيد، ونبذ كل ما يخالف ذلك، وذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا على خلافه وعداوته إلا عمه أبا طالب، الذي حدب عليه، ومنعه، وقام دونه ضد من عاداه.

ومضى رسول الله ﷺ في دعوته مُظهراً لأمر الله تعالى، ذاكراً حقائق الأصنام، مبيناً أن من عبدها من دون الله فهو في ضلال مبين، وكان ذلك في سنة أربع من البعثة.

لقد فاجأ رسول الله ﷺ العرب بما لم يكونوا يألفونه ويعرفونه، فاستنكروا دعوته أشد الاستنكار، وكان كل همهم القضاء عليه وعلى أصحابه : {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7)} [ص/٢-٧] .

والذي دفع قريشاً إلى رفض دعوة محمد ﷺ هو تقليد الآباء، وتلك سنة جاهلية إبليسية كما قال سبحانه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ} [لقمان/٢١].

إن تقليد الآباء عقبة تحول بين الإنسان والإصغاء للحق، لأنه تلقَّى دينه وراثة عن أبيه دون تفكير، وما عارض الكفارُ الرسلَ إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن أسلافهم، فيرى أباه أو أقاربه يفعلون شيئا فيفعله ويتعود عليه، ولا يكتفي بهذا، بل إذا ذكر بأن هذا خطأ لا يتجاوب في تركه، بل ينكر ذلك، لأنه ألفه، ويستصعب مواجهة عادات أهل بلده :{بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (22) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (23)} [الزخرف/٢٢-٢٣].

وكان أبو طالب يعرف صدق محمد ﷺ، ويدافع عنه، ويحنو عليه، ويحسن إليه، ويحامي عنه، وهو مستمر مع ذلك على شركه، وكان رسول الله ﷺ أحب خلق الله إليه طبعاً، وسر ذلك أن الله عزوجل امتحن قلبه بحب محمد ﷺ حباً طبيعياً لا شرعياً، وكان استمراره على دين قومه من حكمة

الله تعالى، ومما صنعه الله لرسوله من الحماية، إذ لو أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولاجترؤا عليه، ولمدوا أيديهم، وألسنتهم بالسوء إليه.

وكفار مكة مقرون بقلوبهم أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، ولكنهم قدموا أهواءهم، وتقليد آبائهم، على اتباع الحق، كما قال الله عنهم: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام/٣٣].

ولما رأى كفار قريش ثبات النبي ﷺ على دعوته، ورأوا أنه لا يجيبهم إلى شيء مما أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه، وقام دونه، ولم يسلمه لهم، عند ذلك مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، وهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، وأبو جهل عمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، ونبيه ومنبه ابناء الحجاج، والعاص بن وائل السهمي. فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، مؤملين إجابته.

تابع موقف قريش من الجهر بالدعوة:

موقف الوليد بن المغيرة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ الوَلِيدَ بْنَ الـمُغِيرَةِ جَاءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ القُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمِّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالاً. قَالَ: لَمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ، فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُـحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِـمَا قِبَلَهُ. قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالاً. قَالَ: فَقُلْ فيهِ قَوْلاً يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ. قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ، فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلا بِأَشْعَارِ الجِنِّ، واللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وواللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً، وَإِنَّهُ لَـمُثْمِرٌ أَعْلاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ. قَالَ: لا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ، قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ. فَنزَلَتْ: " ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا". أخرجه الحاكم.

فهذه الكلمات يصف فيها الوليد بن المغيرة القرآن الكريم وبلاغته، وهي كناية عن عذوبة ألفاظ القرآن الكريم، وجزالتها، وحلاوتها... وقوة تركيبه، وسمو معانيه، وأخذه بمجامع القلوب، وعلوه على كل كلام.

قريش تصد الحجاج عن سماع الدعوة

استمر النبي ﷺ في دعوته، يظهر دين الله تعالى، ويدعو إليه، حتى اقترب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، واحتاروا في أمر الرسول ﷺ، وتشاوروا كيف يحولون بينه وبين الحجاج، لأنه سيؤثر عليهم، وكفار قريش يعلمون أن محمداً صادق أمين، فاتفقوا أنهم يصفون النبي ﷺ بأنه ساحر.

وكان هذا الرأي رأي الوليد بن المغيرة المخزومي الذي أنزل فيه:{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ

(19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) } [المدثر/١١-٢٥] .

✉وبعد أن اتفق زعماء قريش على هذا الرأي، وهذا القرار، باشروا في تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم، فجعل لا يمر بهم أحد إلا حذروه رسول الله ﷺ، وذكروا له أمره، ليصرفوهم عنه.

📝والذي تولى كبر ذلك عمه (أبو لهب)، فقد كان رسول الله ﷺ يتبع الناس إذا وافى موسم الحج في منازلهم، وفي سوق عكاظ، ومجنة، وذي المجاز، فيدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويخبرهم أنه نبي مرسل، وأبو لهب خلفه يقول للناس لا تطيعوه، ولا تسمعوا منه، فإنه صابئ كذاب.

عن رَبِيعَةَ بْن عَبَّادٍ الدِّيلِي رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي المَجَازِ وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا» وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الوَجْهِ، أَحْوَلُ، ذُو غَدِيرَتَيْنِ، يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، يَتْبَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ. فَسَالتُ عَنْهُ، فَذَكَرُوا لي نَسَبَ رَسُولِ الله ﷺ وَقَالُوا لي: هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ. أخرجه أحمد.

📝ولما صدرت العرب من ذلك الموسم انتشر ذكر رسول الله ﷺ في بلاد العرب كلها، وخشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه، فقال قصيدته المشهورة التي تعوذ فيها بحرم مكة، وتودد فيها أشراف قومه، وأكَّد لهم أنه غير مسلم رسول الله ﷺ ولا تاركه حتى يهلك دونه.

🗐 أساليب قريش في قمع الدعوة:

أساليب كفار قريش في مواجهة الرسول ﷺ ودعوته

📝لما رأى كفار قريش أن النبي ﷺ ماضٍ في دعوته، لا يصرفه عن الدعوة إلى الله شيء، ولم يثنه عنها حديثهم مع عمه أبي طالب، ولا غير ذلك من المحاولات الأخرى، فلجؤا إلى أساليب أخرى لمواجهة الرسول ﷺ، ودعوته، واختاروا لقمع هذه الدعوة عدة أساليب تنفر الناس عنها، ومن ذلك:

1-إثارة الشبهات حول مصدر القرآن الذي جاء به: وذلك ببث الدعايات الكاذبة حول القرآن، والرسول الذي جاء به، حتى لا يبقى لأحد مجال في تدبر دعوته، أو الاستماع إليه.

⇦فكان كفار قريش يقولون عن رسول الله ﷺ كما أخبر الله عزَّ وجلَّ: {إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} [النحل/١٠٣].

⇦وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ: {وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} [الفرقان/٧].

وكانوا يقولون عن القرآن: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5)} [الفرقان/٤-٥].

⇦وكانوا يشككون في مصدر القرآن: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل/١٠٣].

2-معارضة القرآن بأساطير الأولين: وذلك لإشغال الناس بالأساطير عن القرآن، والذي تولى كبر ذلك النضر بن الحارث، وكان من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة،

وكان قد تعلم أحاديث ملوك الفرس، فكان يعقب الرسول ﷺ في مجلسه إذا قام، ويقول أنا أحسن حديثاً منه، وما حديثه إلا أساطير الأولين، ثم يحدثهم.

⇦وقد نزل في النضر قوله تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (9)} [الجاثية/٧ -٩]. ونزل فيه: {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [القلم/١٥].

رحمة نبينا ﷺ مقابل شدة القسوة:

3-أسلوب السخرية والاستهزاء: كان كفار مكة يسخرون ويستهزؤن بالقرآن الكريم، والنبي ﷺ،

وذلك لصد الناس عنه، وتخذيل المسلمين، وتحقيرهم، ومواجهتهم بحرب نفسية توهن قواهم، وتشككهم في دينهم.

⇦فرموا النبي ﷺ بالجنون: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر/٦].

⇦ورموه بالسحر والكذب: {وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص/٤]

⇦ورموه بالشعر: {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} [الأنبياء/٥].

وكان ﷺ إذا قرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله تعالى سخروا منه: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [فصلت/٥].

وسخروا منه حين أخبرهم أنهم سيبعثون بعد الموت: {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [الرعد/٥].

وكان أبو جهل فرعون هذه الأمة، يستهزئ بالرسول ﷺ في كل ناد، فقال: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، كما أخبر الله عنه وعن وأصحابه: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)} [الأنفال/٣٢-٣٣].

وجاءت أم جميل زوجة أبي لهب، فقالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: {وَالضُّحَىٰ (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (3)} متفق عليه.

وقد تعرّض الرسول للكثير من الأذى من قِبل أبي لهب وزوجته؛ إذ كانت شريكة لزوجها في صَبّ الأذى على رسول الله، وإعلان تكذيب دعوته، وقد نزلت في أبي لهب وامرأته سورةُ المسد؛ بقوله -تعالى-: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5) المسد ومن أفعال زوجته أنّها كانت تضع الشوك في الطريق الذي يمشي فيه الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وكانت تضع الأوساخ على باب بيته، وكانت تؤذيه بلسانها، وتُفسد بينه وبين الناس بالنميمة، وعندما علمت أنّ الله توعّدها بالنار هي وزوجها، أتَت إلى الرسول بالحجارة تُريد رميَه بها، إلّا أنّ الله صرفَ نظرها عن الرسول -صلّى الله عليه وسلّم.

المراجع:

❶السيرة النبوية بين المعرفة والواجب في ضـــــوء القــرآن والســـنة، -جامعة الفقه الإسلامي العالمية في ضوء القرآن والسنة-.

❷الموسوعة التاريخية: الدرر السنية.

❸السيرة النبوية د إبراهيم الدويش.